القصص

ضحيـــــة الوهم

بقلم القصصى الايطالى المعروف

ماسيمو بونتمپلى

Massimo Bontempelli

عهد إلىّ « رينيه كلامار » أن أقتل الوقت مع « ميني » ، لأنه يريد أن يقضى أمراً يقصيه عنها نحو نصف الساعة . فأخذنا نسير فى طريق اللوفر . وعلى حين غرة تركتنى ميني مسرعة إلى الناحية الأخرى من الشارع لترى صندوقاً زجاجياً مستطيل الشكل وضع أمام حانوت لبيع أدوات صيد السمك . وكانت الأسماك الذهبية تسبح فى الماء الصافى الذى امتلأ به الاناء . وكأنها من شدة فرحها لا تعرف بحراً خضما أعظم من هـذا الصندوق الزجاجى

وقالت ميني بعد أن صفقت بيديها :

« يا الـهى ، ما أجملها ! »

ودنوت أنا منها . ووافقتها على ذلك ، وفى صوتى نبرات الجد ، قائلاً :

« نعم ، إنها جديرة بأن تحوز اعجاب الناس . »

فنظرت إلىّ ميني نظرة ناقد وقالت :

« ماهذا التعبير : جديرة بأن تحوز اعجاب الناس ؟ انه لا يقال إلاّ لما يصنعه الانسان بيده سواء أكان هـذا صوراً أم شعراً كالذى يتكلم عنه أصدقاؤك . وكذلك يمكن أن يقال هـذا عن الثياب . . . . »

ولـكنى قاطعتها بقوة من يريد الفصل فى الموضوع : « لابد لى أن ألفت نظرك إلى أن رينيه كلامار وأنا وغيرنا — وهنا أخذت تنظر إلى كمن يتفرس فى معرفة الأشياء — ذكروا أكثر من مرة أنك جديرة بأن تحوزى اعجاب الناس ؛ ومع ذلك فأنت لست من صنع إنسان »

وابتسمت ميني شاكرة ، ولـكنها أجابت فى منطق معكوس :

« ولـكني على أى حال لست سمكة »

فتشبثت برأيي وقلت :

« على أنى قلت إن هـذه السمكات جديرة بأن تحوز إعجاب الناس ، لأنها سمكات غير حقيقية ، هى سمكات تقليدية . »

فحدقت ميني فىّ أولاً ، ثم فى السمك ثانياً ، ثم عادت تحدق فىّ ، ثم صفقت بيديها وقالت :

« أصحيح هذا ؟ »

وكانت ميني من أولئك الذين يعيشون وينمون ولا يتعدون دور الطفولة . ومثل هؤلاء يسهل إغراؤهم وقيادتهم ، وليس عندهم من الأشياء ما لا يمكن تصديقه والايمان به إذا ماقيل لهم ذلك . قالت ميني :

ـ ولـكن كيف تتحرك هذه الأسماك ؟

فقلت لها : « إن الـكهرباء مسلطة عليها . »

فالتفتت مسرعة إلى الأسماك وانحنت على الصندوق تدقق النظر إليـه . وكانت يداها المرتجفتان مثبتتين على موضع قلبها . وقالت

ولـكن كيف تيسر لها كل ذلك ؟ إنها تفتح فاها . والصغيرة هذه تتحاشى الـكبيرة فى سيرها نحو سطح الماء . وهناك فى الركن الآخر اثنان يتقارضان القبل ، كأنهما شقيقان . . . أى . أى . . . وفى القاع السمكة الـكبيرة وقد اهتزت المياه من فوقها كفرس البحر الذى رأيناه فى حديقة الحيوان ، وكان رينيه معنا »

ـ « نعم إنه لشىء عجاب . . . ولـكن أناشدك الله ألا تمسى هذه المياه فان الـكهرباء سارية فيها . »

فاسترجعت ميني أصبعها من فوق سطح الماء وقالت : « وهذه السمكة وجارتها ألم ينظرا إلى الآن بنظرات حادة ؟ ».

وأبصرت صديقي وقلت :

« هاهو ذا رينيه . »

فقالت هي :

« أي رينيه ، يجب أن تنظر إلى هذه الأسماك ! »

وقلت مخاطباً رينيه :

إن ميني تعتقد أن هذه الأسماك حقيقية . »

وكان رينيه يعرف طبعي جيداً ، ومعرفته بميني تكاد تكون نوعاً من اختصاصه . فاندفع يشاطرني هذري

* * *

ولم تجد ميني طيـــلة ذلك اليوم شيئاً آخر تفكر فيه . ثم قالت فجأة :

ـ « وكيف تكون هذه ؟ أصلية هي أم لينة ؟ »

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ـ « الأسماك الصناعية »

ـ « هي لينة كالحقيقية »

ـ « وماذا تصير لو أنها أخرجت من الماء ؟ »

ـ تصير كالأسماك الحقيقية بالضبط ، إذ تبني استنشاق الهواء وترتجف بضع مرات ثم تجمد ولا تتحرك كأنها ميتة . »

ـ « ثم بعد ذلك ؟ »

ـ « ثم بعد ذلك . . . تنتن وتفسد »

ـ « وإذا مادفعها إنسان إلى هر ؟ »

ـ « يلتهمها كأنها سمكة حقيقية »

* * *

وفي المساء التالي جلست وإياي في البهو تنتظر رينيه ، فقد ذهب لشراء بعض لفافات من التبغ

ـ « ميني ، مادامت هذه الأشياء تشغل بالك فسأفصح لك عن سر عظيم . بعد أن اخترعت الأسماك الصغيرة ، حاول العلماء خلق أحياء أخرى . فاخترعوا العصافير مثلاً . عصافير صغيرة تحفظ الغناء »

ـ حقاً ، إنني شاهدتها وهي من صنع (نورمبرج) من أعمال ألمانيا ، ويجب أن تملأ الزنبرك إذا ما أردنا سماع غنائها . وبرغم أنها تحرك المنقار والرأس فانها لا تطير ، وهي صلبة كالمعادن . »

ـ كل ذلك صحيح يا ميني . ولكن العصافير الأولى كانت كالعصافير الحقيقية تماماً . كانت كالأسماك التي شاهدناها في طريق اللوفر . والآن أفضي اليك بذلك السر العظيم ، ولقد أردت أن أدلي به اليك من قبل ولكن الفرصة لم تسنح لي . قلت لك خلق العلماء أحياء أخرى ثم . . . ولكن يجب أن تقسمي ألا تذكري ذلك لأحد »

ـ « حسن ، أقسم على ذلك »

ـ « ثم . . . ثم خلقوا آدميين »

ـ « يا إلـه السماء . . . ! »

ـ « خلقوا اثني عشر شخصاً : ستة رجال وست نساء »

ـ « يا إلـهي . . . وكيف كان هؤلاء ؟ »

ـ « هم كتلك الأسماك . هم مثلي ومثلك »

ـ « ولكن أين هم الآن ؟ »

ـ « هذا مالا يعرفه أحد . وبذا حفظ السر . فبعد أن خلقوا خرجوا من المعامل . وأخذ الناس يبحثون عنهم دون جدوى . ولا يعرف غير الله موضعهم »

ـ « ولكنهم تدثروا بالملابس ؟ »

ـ « طبعاً ! »

ـ « ومتى كان ذلك ؟ »

ـ « منذ أكثر من سنة »

ـ « وأين ساروا ؟ »

ـ « هنا ، هنا في باريس . وكانوا كاملين في كل شيء ، ولا يمكن تمييزهم من الآدميين الحقيقيين . تصوري يا ميني أننا قد نكون تقابلنا مع أحدهم دون أن نعلم »

ـ « لا ، لا . إنني أشعر بالشيب يدب في رأسي ، لقد اعتزمت ألا أخرج من المنزل ، ويجب على الناس أن يبحثوا عنهم . ولماذا لا يعثرون عليهم ؟ وواجب هؤلاء أن يقولوا بأنهم ليسوا آدميين حقيقيين

ـ « ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك كله . إنهم يعتقدون أنهم من لحم ودم كبقية خلق الله »

* * *

واختل تفكير ميني ، ولم أفلح أنا ورينيه في تشتيت تلك الأفكار الخبيثة عنها . وقد أقسمنا لها بكل عظيم « أننا لم نبغ إلا الهذر من كل تلك الأمور »

ـ « هذا تذكاره لي الآن حتى أهدأ بعض الهدوء ، ولكني أعرف وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل ماذكر لي قد

وقع ، ومن يدرى ؟ ربما كان ذلك الرجل القادم . . . . . لا ، لا . . ! لترجع ثانية الى المنزل

وكانت كلما مرت برجل فى طريقنا ظنته صـناعياً . وفجأة تأوهت ، وأحجمت عن السير . ورأت فى بينها ملجأها الوحيد ، ولتبق هى فى غرفة منه ثانية ، أو فى ركن منه مظلم . ولم تتزحزح هذه الأفكار عن مخيلتها ، وقد تراكمت فكانت أثقل من جبل ، وفى الليل كانت تنزعج وتصرخ فى منامها . فكنت أنا وريتيه نوقظها . وكنا نقسم لها أغلظ الأيمان من جديد . غير أنها كانت تعتبر كلامنا غير أهل للأجابة عليه ، وبدأ الشك والسوداء يستوليان عليها . وأخيراً قال لها ريتيه :

ـ « ماذا يحزنك يا ميني ؟ »

ـ ماذا يحزنني . . ؟ لا يعرف أحد إذا كان الذى ينظر إلى أو الذى يكلمني هذا من لحم ودم . لا ، لا ، أولى لى أن أموت !

ثم أدارت رأسها فى حركة ميكانيكية وقالت :

ـ « وأنتما لا تعرفان . . . »

ولم يكن فى مقدرة أحد أن يغريها بترك باريس . ولماذا ؟ قد يكونون متفرقين فى بقية العالم

وكانت لا تود رؤية أحـد حتى خادمتها الصـغيرة لم تطق رؤيتها فى المنزل . ثم لزمت الفراش لا تفارقه

وكنت أنا وريتيه نتناوب السهر عليها ، ونقدم لها الطعام فلا تأكل منه إلا يسيراً . وكانت حياة ملؤها وخز الضمير . وعند ما كانت تغفو كنا نستدعى الأطباء سراً ، ليشيروا بعلاج يرجع لها رشـدها . ولـكن تلك الفـكرة التى لازمتها كانت تتوغل فى الصميم ، فتركزت أفكارها حول نقطة واحدة . . .

« ربما كان أحدهم من رأيته أو حادثته . . . »

وكانت حياة كلها نـكد ، يزيد فى ظلماتها الذنب المشترك .

وكنت أنا وريتيه نمضى الساعات دون أن ننبس بكلمة أو ينظر أحدنا إلى صاحبه

وفى ذات يوم تولانا الرعب من فـكرة طارئة . ماذا يكون الحال يا ترى لو خيل إلى ميني أن أحـدنا أو كلينا من أولئك الرجال المصنوعين ، الذين يفزع منهم الشـياطين لمجرد ذكرهم أو تخيلهم . ألم نـكن نحن أول من قال لها عن هذا الأختراع السخيف ؟

ولـكن هذه الفكرة لم تستول عليها ، بل اكتسحت مخيلتها فكرة أشد خطراً وأبعد غوراً

كانت ليلة من ليالى الربيع . وقد غرقت ميني فى النوم الهادىء ففرحنـا . وفتحنا النـافذة ، وأطللت أنا وريتيه على الطريق نتسلى برؤية النجوم مرة ، وبانعام النظر فى الظلام المخيم على جوانب الشارع مرة ، وتارة كانت تستلفت أنظارنا الأنوار الحمراء التى تضىء أسماء الحوانيت ، وتارة أخرى تسترعى أبصارنا الأعلانات الوضاءة . . .

وعلى حين فجـأة سمعنا صوتاً جهورياً مرتجفاً . ولما نظرنا خلفنا وجدنا ميني واقفـة فوق سريرها باسطة ذراعيها ، وتكاد تتخلع من الرعدة . فأسرعنا إليها ولـكنها فزعت منا . وقذفت بنفسها من السرير فارتطمت بالمرآة . وحدقت أولاً فى قميص نومها ثم فى قبضة يدها . ثم دفعت وجهها ليلتصق بالمرآة . ونظرت الى صورتها وحدقت فيها كأعتريد اكتشاف كنه مابها

ـ « أى نعم ، إن الأمر لهو كذلك . إننى أراه جلياً واضحاً . نعم ، إننى أنا هو . إننى لست من لحم ودم . كلا ، كلا . إننى أنا ذلك الأنسان الصناعى وما كنت أدرى ذلك من قبل » .

فصاح كل منا :

ـ « ميني ! »

ـ « لا . إننى أفهم الآن كل شىء . إننى متأكدة أنكما لن تعرفا ذلك . . . . ولـكن ماذا أنا فاعلة الآن ؟ وماذا فى وسعى أن أعمله ؟ سامحنى يا ريتيه ! الذنب ليس ذنبى »

حاولنا أن نمسك بذراعيها ، وهى تحدق فى الفضاء . ولـكنها رفعت يدها وأشارت بها نحو الباب وقالت :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

ـ لا شىء ، لا أحد يا ميني ، هدئى روعك !

ـ ولـكن هنالك . . . ، هنالك ، من هنالك . . ؟ انظروا انظروا من هو ؟

وشعّ ضوء مخيف من عينيها كما وجهها ضياء جافاً ، وانطلت علينا الحيلة ، وذهبنا الى الباب لهدىء من حدتها . وما كدنا نصـله حتى التفتنا الى الخلف دون سبب ، ولـكن بعد أن فات الأوان ، إذ وقفت ميني كعفريت من الجن على حافة النافذة . فلم نتمالك من الصراخ وهرعنا اليها . ولـكنها كانت قد قذفت بنفسها الى الشارع . ولم يبق منها إلا قطعة من قميص نومها معلقة فى يد ريتيه . وساد السكون ثوانى حسبناها ساعات وإذا بجسدها يرتطم بالأسفلت فيقضى على أنفاسها وعلى هواجسها

عربها عن الألمانية ا . ا . ى